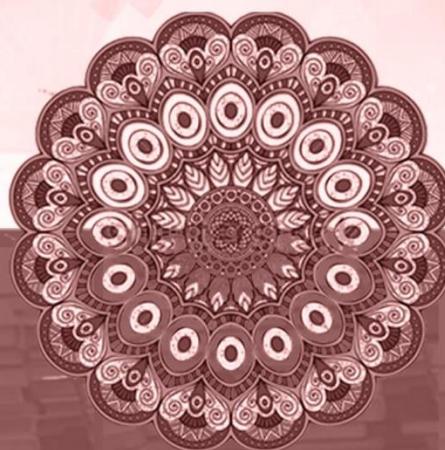


خطبة الحاجة

بعاصم
د. خالد النجار



خطبة الحاجة

المقدمة:

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّورِ أَنفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضْلِلٌ لَّهُ، وَمَنْ يَضْلِلُ فَلَا هَادِيٌ لَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: 102]

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رِقَبَيْأَن﴾ [النساء: 1]

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحُ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 70-71]

إن أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلاله، وكل ضلاله في النار.

هذه المقدمة كثيرة ما نسمعها من الخطباء والمحاضرين، ونقرؤها في افتتاحيات كتب بعض المؤلفين، وتسمى هذه المقدمة «خطبة الحاجة»؛ وهي الخطبة التي كان يقولها النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بين يدي كلامه في خطبه ومواعظه، وعلم أصحابه أن يقولوها بين يدي حاجاتهم، ك الخطبة والعقود ونحو ذلك.

فهي مفتاح يفتح بها المتكلم الحديث عن حاجة من حاجاته؛ كموعظة أو خطبة أو تعليم أو جواب أو نكاح، أو غير ذلك.

وقد ناسب ذكر هذه المقدمة بين يدي الحاجات بهذه الأصول الكلية؛ فحمد الله ثناء على نعمه ومنها الكلام أو الكتابة، أو غير ذلك.

والاستعانة بالله طريق إلى التوفيق في القول، والعبد مفتقر إلى ذلك.

والعصيان من أسباب الخذلان، فيحتاج المسلم إلى طلب المغفرة والهداية حتى يظفر بمتطلبه.



وشرور النفس، وسیئات الأعمال تقف في طريق التوفيق، ومن شرور النفس: العجب بقدرة النفس، فيحتاج العبد الذي يريد الوصول إلى النجاح في حاجته إلى الاستعاذه بالله من شر نفسه وسيء عمله.

ولما كان المتكلم أو الكاتب سيف داعياً للحق فيحسن به أن يبين أن أصدق الكلام كلام الله، وأحسن الهدي، الهدي الذي جاء به رسول الله؛ ليشير بذلك إلى أنه ينبغي دعوة الناس وفق كلام الله، وهدايتهم بما يتتوافق مع هدي رسول الله، وأن على الناس سماع كلام الله واتباعه؛ لأنه أصدق الكلام، وسماع كلام رسوله والعمل به؛ لأنه أحسن الكلام البشري.

وببيانه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بأن شر الأمور محدثها، ووصف المحدثة والحكم عليها وبيان عاقبتها؛ فيه دعوة إلى أن تكون دعوة المسلم بعيدة عن البدع والمحدثات، وفيها ترهيب من الوقوع في ذلك؛ لأن الوصف والعقوبة الناتجة عن البدعة قد بيته هذه الكلمات المضيئة.

ثم ختم المقدمة بالوصية بالتقوى، وهي الأمر الجامع لصلاح الدين القائم على فعل الأوامر وترك النواهي، فالوصية بالتقوى دعوة متكررة في كل خطبة إلى لزوم شرع الله -أمراً ونهاياً- على الدوام.

** خطبة الحاجة أهمية عظيمة ويدل على ذلك: أن رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يعلمها أصحابه؛ فقد قال عبد الله بن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: "عَلِمَنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- التَّشَهِدُ فِي الصَّلَاةِ وَالتَّشَهِدُ فِي الْحَاجَةِ، قَالَ:.... وَالتَّشَهِدُ فِي الْحَاجَةِ: إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا" وذكرها بنحوه.

وما يدل على أهمية هذه الخطبة: أنها كانت سبباً لإسلام الصحابي ضماد بن ثعلبة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، فعن ابن عباس أن ضماداً قدِمَ مكةً و كان من أزد شنوة وكان يرقي من هذه الريح [الجنون ومس الجن] فسمع سفهاء من أهل مكة يقلدون إِنَّ مُحَمَّداً مجنون ف قال لو أَيْتُ هَذَا الرَّجُلَ لَعَلَّ اللَّهَ يُشْفِيهِ عَلَى يَدِي قَالَ فَلَقِيَهُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ إِنِّي أَرْقَيْتُ مِنْ هَذِهِ الرِّيحِ وَإِنَّ اللَّهَ يَشْفِي عَلَى يَدِي مَنْ شَاءَ فَهَلْ لَكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى



الله عليه وسلام : إن الحمد لله حمدُه ونستعينُه مَن يَهْدِي اللَّهَ فَلَا مُضِلٌّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلُ فَلَا هَادِي لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ أَمَّا بَعْدُ .

قالَ فَقَالَ أَعْدَ عَلَيَّ كَلِمَاتِكَ هُؤُلَاءِ فَأَعَادُهُنَّ عَلَيْهِ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ثَلَاثَ مَرَّاتٍ

قالَ فَقَالَ لَقَدْ سِعْتُ قَوْلَ الْكَهْنَةِ وَقَوْلَ السَّحَرَةِ وَقَوْلَ الشُّعَرَاءِ فَمَا سِعْتُ مِثْلَ كَلِمَاتِكَ هُؤُلَاءِ وَلَقَدْ بَلَغْنَ نَاعُوسَ الْبَحْرِ [قعره الأقصى]

قالَ فَقَالَ هَاتِ يَدَكِ أَبَا يَعْلَكَ عَلَى الْإِسْلَامِ قَالَ فَبِأَيَّهُ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَعَلَى قَوْمِكَ قَالَ وَعَلَى قَوْمِي قَالَ فَبَعَثَ رَسُولُ اللهِ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- سَرِيَّةً فَمَرُوا بِقَوْمِهِ فَقَالَ صَاحِبُ السَّرِيَّةِ لِلْجَيْشِ هَلْ أَصَبْتُمْ مِنْ هُؤُلَاءِ شَيْئًا فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ أَصَبْتُ مِنْهُمْ مِطْهَرَةً فَقَالَ رُدُّوهَا إِنَّ هُؤُلَاءِ قَوْمٌ ضَمَادٍ . [مسلم]

** يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- : "ولهذا استحبت وفعلت في مخاطبة الناس بالعلم عموماً وخصوصاً؛ من تعلم الكتاب والسنّة والفقه في ذلك، وموعظة الناس ومجادلتهم: أن يفتح بهذه الخطبة الشرعية النبوية ... ؛ فإن حديث ابن مسعود لم يخص النكاح، وإنما هي خطبة لكل حاجة، في مخاطبة العباد بعضهم بعضاً، والنكاح من جملة ذلك .

فإن مراعاة السنن الشرعية، في الأقوال والأعمال، في جميع العبادات والعادات: هو كمال الصراط المستقيم، وما سوى ذلك إن لم يكن منها عنه، فإنه منقوص مرجوح؛ إذ خير الهدي هدي محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . [مجموع الفتاوى]

** فما معانٍ هذه الكلمات التي علمها رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- لأصحابه؟

وما معانٍ هذه الكلمات التي أبهرت عقل ضماد فأسلم فور سماعها؟



قوله (إن الحمد لله، نحمده)

افتتحت ببيان أن الحمد كله لله، وأنه لا يستحق ذلك سواه؛ فهو تعالى محمود على كماله وجلاله وجماله في ذاته وصفاته وأقضيته وأفعاله.

والحمد: وصف المحمود بالكمال محبة وتعظيمًا وإجلالًا، فإذا وصفت ربك بالكمال، فهذا هو الحمد، لكن لا بد أن يكون مصحوباً بالمحبة والتعظيم والإجلال؛ لأنه إن لم يكن مصحوباً بذلك سمي مدحًا لا حمدًا.

ومن ثم نجد بعض الشعراء يمدحون بعض الأمراء مدحًا عظيمًا بالغاً، لكنك لو فتشت عن قلبه لوجدت أنه خالٍ من محبة هذا الأمير، ولكنه يمدحه؛ إما لرجاء منفعة، أو لدفع مضره.

أما حمدنا الله -عز وجل- فإنه حمد محبة وتعظيم وإجلال، إذ إن محبة الله تعالى فوق كل محبة، ومحبة رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فوق محبة كل مخلوق، وهذا يجب علينا أن يكون الله ورسوله أحب إلينا مما سواهما، ويجب علينا أن تكون محبة رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فوق محبة أنفسنا وأهلينا ووالدينا وأولادنا؛ لأنه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- هو أعظم الناس حقاً علينا، به هدانا الله، وبه أرشدنا، وبه دلنا على كل خير، وبه بين لنا كل شر، وبه نقتدي على منهاج ربنا -عز وجل- الموصى إلى دار كرامته ورضوانه.

فلهذا من لم يكن قلبه مملوءاً من محبة الله ورسوله، ومن لم يكن مقدماً لحبة الله ورسوله على من سواهما، فليعلم أن في قلبه مرضًا، وليرحص على أن يصحح هذا المرض، قال النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ) [البخاري].

وإذا كررت الوصف بالحمد سمي ثناءً. وعليه؛ فالثناء تكرار وصف المحمود بالكمال.

ويدل على هذا الفرق: ما ثبت في الصحيح من حديث أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، أن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: (قال الله تعالى: قسمت الصلاة بيدي وبين عبدي نصفين، فإذا قال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الفاتحة: 2] قال الله: حمدي عبدي،



وإذا قال: {الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ} [الفاتحة:3] قال: أثني على عبدي، وإذا قال: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة:4] قال: مجده عبدي) والتمجيد: التعظيم من يشعر بهذا يجد لذة عظيمة للصلوة، ويجد أن قلبه استنار بها، وأنه خرج منها بقلب غير القلب الذي دخل فيها به.

وقيل: الحمد هو الوصف الجميل، وهو مطلق الثناء بكل أنواعه، فهو منتهى الثناء، قال العالمة الطاهر ابن عاشور: "الحمد يشملسائر صفات الكمال التي استحق الله لأجلها حصر الحمد له تعالى، بناء على ما تدل عليه جملة «الحمد لله» من اختصاص جنس الحمد به تعالى، واستحقاقه لذلك الاختصاص.. والحمد هو الثناء على الجميل، أي الوصف الجميل الاختياري فعلاً كان كالكرم وإغاثة الملهوف أم غيره كالشجاعة. وقد جعلوا الثناء جنساً للحمد فهو أعم منه ولا يكون ضده، فالثناء الذكر بخير مطلقاً". "والحمد لله هو الشعور الذي يفيض به قلب المؤمن بمجرد ذكره لله.. فإن وجوده ابتداء ليس إلا نعمة من النعم الإلهية التي تستجيش الحمد والثناء.

وفي كل لحظة وفي كل خطوة تتوالى آلاء الله وتواكب وتتجمع، وتغمر خلائقه كلها وبخاصة هذا الإنسان.. ومن ثم كان الحمد لله ابتداء، وكان الحمد لله ختاماً قاعدة من قواعد التصور الإسلامي المباشر: {وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص:70] والتوجه إلى الله بالحمد يمثل شعور المؤمن الذي يستجيشه مجرد ذكره لله.

فقوله: (الحمد لله نحمده) جملة: (نحمده) جملة فعلية، (والحمد لله) جملة اسمية، فجاءت الجملة الفعلية بعد الجملة الاسمية، لتأكيد تكرار الحمد، كأننا مستمرون بحمد الله عز وجل.

والحمد عبادة من العبادات التي تؤدي في سراء المسلم وضرائه؛ فقد كان النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إذا رأى ما يسره قال: (الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإذا رأى ما يسُرُّه قال: الحمد لله على كل حال) [ابن ماجة] وما كان الحمد كذلك فإن علينا أن نستمر في حمد الله ما دمنا على هذه الحياة، ولذلك بعد أن قال: الحمد لله، قال: (نحمده).



قوله: (ونستعينه)

أي: نطلب منه العون، على أي شيء؟ وعلى كل شيء، وقيل: (نستعينه) في حمده والثناء عليه بما هو أهله وغير ذلك، وهو وما بعده جمل مستأنفة مبينة لأحوال الحامدين.

فنحن نطلب من الله العون في كل ما توجهنا إليه من أمور ديننا ودنيانا؛ لأننا ضعفاء عاجزون، فلو وكلنا إلى أنفسنا هلكنا.

قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ الْإِنْسَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: 28]

وقال الشاعر:

إذا لم يكن عون من الله للفتى *** فاكتثر ما يجني عليه اجتهاده
وكما نقول في الفاتحة: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة: 5] على كل شيء.
ومنها: أن نستعينك على أداء الصلاة على الوجه الذي يرضيك عنا.

وعندما تتكلم بهذه الخطبة، فإنك تستعين الله تعالى على هذه الخطبة التي ستقولها وتسأله العون، وفي الحديث: عَنْ أَنَسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (لِيَسْأَلُ أَحَدُكُمْ رَبَّهُ حَاجَتَهُ كُلَّهَا حَتَّىٰ يَسْأَلَ شِسْعَ نَعْلِهِ إِذَا انْقَطَعَ) [رواوه الترمذى وضعفه الألبانى]

قوله: (ونستغفره)

أي: نسأله المغفرة، والمغفرة: هي ستر الذنب مع التجاوز عنه.
فأنت عندما تقول: (أستغفر الله) تسأل الله شيئاً هما: الأول: ستر الذنب، والثاني:
التجاوز عنه بحيث لا يعاقبك الله عليه.

ولهذا إذا كان يوم القيمة فإن الله تعالى يخلو بعده المؤمن ويقول: (فعلت كذا فعلت كذا حتى يقر، ثم يقول الله -عز وجل-: قد سترتها عليك في الدنيا، وأنا أغفرها لك اليوم) اللهم اغفر لنا.

"ونستغفره" أيضاً أي في تقصير عبادته وتأخير طاعته، فالعبد يتبع الاستغفار دائماً يستغفر ربه بعد الطاعة لأنه لم يطعه كما أمره، ويستغفر بعد معصيته لأنه عصاه وهو خالقه، فالاستغفار إظهار الفقر لله تعالى، وقد أمر الله نبيه بالاستغفار في أشد ما يكون



فرحة وهو يوم أن نصره الله على أعدائه الذين آذوه وقاتلوه، فقال تعالى: {إِذَا جَاءَ
نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبَّحَ بِحَمْدِ رَبِّكَ
وَاسْتَغْفِرَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَابًا}.

فالاستغفار له ملابسات نفسية كثيرة دقيقة لطيفة المدخل: منها الاستغفار من الزهو الذي قد يساور القلب بعد الطاعة، ومنها الاستغفار من التقصير في حمد الله وشكره.. فجهد الإنسان، مهما كان، ضعيف محدود، وآلاء الله دائمة الفيض.. {وَإِنْ
تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} [النحل: 18] فمن هذا التقصير يكون الاستغفار.

ونحن نديم طلب المغفرة من الله تعالى؛ لأن ذنوبنا كثيرة، وهي مستمرة معنا، فناسب أن نستمر في الاستغفار. قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (طوبى لمن وجد في صحيفته استغفارًا كثيراً) [ابن ماجة]

ونجد أن في كتب بعض العلماء الذين يبدأون بهذه الخطبة (نستغفره ونتوب إليه) ولكن بعد التحري لم نجد في الحديث: (ونتوب إليه) بل (نستغفره) فقط.

وقوله (نحمده ونستعينه ونستغفره) ثلاث كلمات تضمنت ثلاثة مطالب عظيمة بها
صلاح الدنيا والدين والآخرة، وقد جاءت بصيغة المضارعة الدالة على التجدد
والاستمرار.



قوله: (ونعوذ بالله من شرور أنفسنا)

أي: نعتصم بالله من ظهور شرور أخلاق نفوسنا الرديمة، وأحوال طباع أهواننا الدنيوية.

والنفوس ثلاثة: (نفس شريرة): وهي الأمارة بالسوء، (ونفس خيرة): وهي المطمئنة تأمر بالخير، (ونفس لوامة)، وكلها مذكورة في القرآن:

النفس الشريرة التي تأمر بالسوء مذكورة في سورة يوسف: **{وَمَا أَبْرَئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَارَةٌ بِالسُّوءِ}** [يوسف: 53]

والنفس المطمئنة الحيرة التي تأمر بالخير مذكورة في سورة الفجر: **{يَا أَيُّهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَةُ * ارْجِعِي إِلَى رِبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي}** [الفجر: 28-30]

والنفس اللوامة مذكورة في سورة القيامة: **{لَا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ * وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ الْلَّوَامَةِ}** [القيامة: 1-2]

والنفس اللوامة من العلماء من يقول: إنها نفس ثالثة، ومنهم من يقول: بل هي وصف للنفسين السابقتين.

فمثلاً: النفس الحيرة تلومك إذا عملت سوءاً أو فرطت في واجب. أما النفس الشريرة تلومك إذا فعلت خيراً، أو تجنبت محراً: كيف تحجر على نفسك؟ لماذا لم تتحرر؟ لماذا لا تفعل كل ما تريده؟

أما النفس الحيرة فتلومك عند فعل الشر وترك الخير، والنفس الأمارة بالعكس. وأياً كان الأمر سواء كانت نفساً ثالثة، أو هي وصف للنفسين: الأمارة بالسوء والمطمئنة، فإن للنفس الشريرة عالمة، أنها تأمرك بالشر تأمرك بالكذب بالغيبة بالغش بالسرقة بالزنا بشرب الخمر...

والنفس الحيرة بالعكس، تأمرك: بالخير بالصلة بالذكر بقراءة القرآن بالصدقة بغير ذلك مما يقربك إلى الله، ونحن كلنا نجد في نفوسنا مصارعة بين هاتين النفسيين، وال موقف من عصمه الله ووقاه شر نفسه، ولهذا نحن نقول: (ونعوذ بالله من شرور أنفسنا) فأنفسنا فيها شر، إذا لم يعصمك الله عز وجل من شر نفسك هلكت.



قوله: (وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا)

الأعمال السيئة لها آثار سيئة: {ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي
النَّاسِ} [الروم: 41]، والسيئة تجلب السيئة، وتقود الإنسان إلى السيئة الأخرى قهراً،
ولهذا قال العلماء رحمة الله: إن المعاشي بريد الكفر.

أي: إذا هانت المعاشي في نفسك هانت الصغيرة ثم هانت الكبيرة ثم هان الكفر في
نفسك، فكفرت والعياذ بالله، وهذا يجب على الإنسان من حين أن يشعر بالمعصية أن
يستغفر الله منها، وأن يلجم الله -عز وجل- بالإنابة والتوبة حتى تمحى آثارها، وحتى
لا يختتم على القلب، وحتى لا يصل الإنسان إلى هذه الدرجة: {كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ
مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [المطففين: 14]

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: "وأما قوله: {ونعوذ بالله من شرور
أنفسنا ومن سيئات أعمالنا} فإن المستعاذ منه نوعان:

نوع موجود يستعاذ من ضرره الذي لم يوجد بعد
نوع مفقود يستعاذ من وجوده؛ فإن نفس وجوده ضرر
مثال الأول: "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"

ومثل الثاني: {وَقُلْنَ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ} (97) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ
يَخْضُرُونَ (98) [المؤمنون] قوله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: (اللهم إني أعوذ بك أن
أضل أو أضل أو أزل أو أزل).

وأما قوله: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ} من شر ما خلق * ومن شر غاسق إذا وقب *
ومن شر النفات في العقد * ومن شر حاسد إذا حسد} فيشترك فيه النوعان فإنه
يستعاذ من الشر الموجود أن لا يضر، ويستعاذ من الشر الضار المفقود أن لا يوجد.

قوله في الحديث: (ونعوذ بالله من شرور أنفسنا) يحتمل القسمين: يحتمل التعوذ
بالله أن يكون منها شر، والتعوذ بالله أن يصيّبنا شرها وهذا أشبه والله أعلم.

وقوله: (وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا) السيئات هي عقوبات الأعمال كقوله في مؤمن آل
فرعون: {فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتٍ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِإِلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ} [غافر: 45] فإن
الحسنات والسيئات يراد بها النعم والنقم كثيراً، كما يراد بها الطاعات والمعاصي.



وإن حملت على السيئات التي هي المعاichi، فيكون قد استعاد أن يعم السينات، أو أن تضره.

وعلى الأول، وهو أشبه: فقد استعاد من عقوبة أعماله أن تصيبه؛ وهذا أشبه. فيكون الحديث قد اشتمل على الاستعاذه من الضرر الفاعلي، والضرر الغائي. فإن سبب الضرر هو شر النفس، وغايتها عقوبة الذنب". [مجموع الفتاوى بتصريف]

قوله: (من يهدِه الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له)
يعني: من يُقدر هدايته ومن يهدِه بالفعل فلا مضل له، فإذا أراد الله هداية شخص، فإن الناس لا يستطيعون أن يضلوه أبداً.

فمن يهدِه الله تقديرًا وفعلاً فإنه لا أحد يضله فلا مضل له، كذلك من يضل تقديرًا أو فعلاً، فلا هادي له.

وأكبر مثل على ذلك أبو طالب عم النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الذي صار منه إلى رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إحساناً بالغاً ومدافعة عظيمة، ومع هذا لم يتمكن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من هدايته حتى في آخر لحظة قال له: «قل: لا إله إلا الله كَلْمَةُ أَحَاجِ لَكَ بِهَا عَنْدَ اللهِ». ولكنه حيل بينه وبينها -والعياذ بالله- لأن الله لم يرد هدايته، والذي يُضله الله لا هادي له.

هذه الجملة جاءت بمعناها آيات كثيرة، منها قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍ﴾ [الرمر: 37]، قوله: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: 17]

إذا كان الأمر كذلك فعلينا أن نطلب الهداية من الله، ونستعين به من الضلال؛ فالمهدایة إلى الحق أعظم نعم الله على العبد، وهي نعمة انفرد بها سبحانه فتستحق جزيل الحمد والشكر، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا هَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِي لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف: 43]

والضلال أكبر النقم على العبد. نسأل الله أن ينعم علينا بتمام الهداية، ويجنبنا سبل الضلال والغواية.



وأهل السنة والجماعة يقولون: إن الله تعالى هو الذي يهدي ويضل وخلق العباد وله قدرة، فعن علیٰ - رضي الله عنه - قال: "كَانَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي جَنَّازَةٍ فَأَخَذَ شَيْئًا فَجَعَلَ يَنْكُتُ بِهِ الْأَرْضَ فَقَالَ: مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ كُتِبَ مَقْعُدُهُ مِنَ النَّارِ وَمَقْعُدُهُ مِنْ الْجَنَّةِ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَفَلَا نَتَكَلَّ عَلَى كِتَابِنَا وَنَدْعُ الْعَمَلِ؟ قَالَ: أَعْمَلُوا فَكُلُّ مُيسَرٍ لِمَا خُلِقَ لَهُ، أَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ فَيُبَيِّسُ لِعَمَلِ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَأَمَّا مَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الشَّقَاءِ فَيُبَيِّسُ لِعَمَلِ أَهْلِ الشَّقَاءِ" ثم قرأ {فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَقَ بِالْحُسْنَى} [الليل: 5-6] [رواه البخاري]

وفي بعض الآثار: أن عمر بن الخطاب خطب بجاية، فحمد الله وأثنى عليه، وعنه جاثيليق [قس] يترجم له [بالفارسية] ما يقول، فقال: من يهد الله فلا مضل له ومن يضل فلا هادي له، فنفض جنبيه كالمنكر لما يقول [نفض الجاثيليق ثوبه كهيئة المنكر لذلك]، قال عمر: ما يقول؟ قالوا: يا أمير المؤمنين يزعم أن الله لا يضل أحدا، قال عمر: كذبت أي عدو الله، بل الله خلقك وقد أضلوك ثم يدخلك النار، أما والله لولا عهد لك لضررت عنقك، إن الله - عز وجل - خلق أهل الجنة وما هم عاملون، وخلق أهل النار وما هم عاملون، فقال: هؤلاء لهذه، فتفرق الناس وما يختلفون في القدر. فالله - جل وعلا - بعلمه الغيب، علم أن أبا بكر وعمر وعثمان وعلي صالحين مصلحين، وأصحاب نفوس ظاهرة، فكتبهم كذلك وجعلهم من أهل الجنة قبل خلقهم، ولذا ما سمعوا أن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - قال: "أَبُو بَكْرٍ فِي الْجَنَّةِ وَعُمَرُ فِي الْجَنَّةِ وَعَثْمَانُ فِي الْجَنَّةِ وَعَلِيُّ فِي الْجَنَّةِ" زادوا في أعمال البر والتقوى، بل إن رسول الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وهو في الجنة بلا ريب كان يكثر من أعمال الخير، فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - إِذَا صَلَّى قَامَ حَتَّى تَفَطَّرَ رِجْلَاهُ قَالَتْ عَائِشَةً: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَتَصْنَعُ هَذَا وَقَدْ غُفِرَ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنِبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ فَقَالَ: (يَا عَائِشَةُ أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟) [رواه مسلم]

وعلم الله أن فرعون وهامان وأبا هب وأبا جهل فاسدين الطوية خبئاء النفوس أرجاس أنجاس لذا كتبهم في النار قبل أن يخلقهم، ودليل ذلك قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقْفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِإِيَّاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} * بل بدأ



لَمْ مَا كَانُوا يُخْفِونَ مِنْ قَبْلٍ وَلَوْ رُدُوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ } [الأنعام: 37]

[28]

قال ابن كثير: شارحا هذه الآية: "يذكر تعالى حال الكفار، إذا وقفوا يوم القيمة على النار، وشاهدوا ما فيها من السلسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك، قالوا: {يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذَّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا، ليعملوا عملاً صالحاً، ولا يكذبوا آيات ربهم، ويكونوا من المؤمنين..."

ثم قال تعالى مبينا سبب طلبهم العودة إلى الدنيا: {بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفِونَ مِنْ قَبْلٍ وَلَوْ رُدُوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُ} فإنهم ما طلبو العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان، بل خوفاً من العذاب الذي عاينوه، جزاء على ما كانوا عليه من الكفر، فسألوا الرجعة إلى الدنيا، ليتخلصوا مما شاهدوا من النار، وهذا قال: {وَلَوْ رُدُوا لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} أي في طلبهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان.

ثم قال مخبراً عنهم أنهم لو ردوا إلى الدار الدنيا: {لَعَادُوا لِمَا هُوَ عَنْهُ}، من الكفر والمخالفة: {وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} أي في قولهم يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا، ونكون من المؤمنين، أي لعادوا لما هوا عنه، ولقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا أي ما هي إلا هذه الحياة الدنيا ثم لا معاد بعدها" ا. ه.

وكل هذا مقدمة بين يدي قوله: (وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله)، فإن الشهادتين إنما تتحققان بحمد الله واستعانته واستغفاره واللجوء إليه والإيمان بأقداره.



قوله (وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله)

هاتان شهادات الإسلام وهم أساسه وركنه الأول: الشهادة لله تعالى بالوحدانية، والشهادة لنبينا محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالرسالة. فهاتان الشهادتان لا يصح إسلام أحد إلا بالإقرار بهما ظاهراً وباطناً، وإنما كان خارجًا عن ملة الإسلام.

فلا إله إلا الله كلمة التوحيد ومعناها: لا معبود بحق إلا الله، وأي إله سواه عبد فقد عبد بباطل.

وشهادة أن محمدًا رسول الله تعني: طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، وترك ما نهى عنه ونحوه، وأن لا يعبد الله إلا بما شرع.

والإسلام كله مداره على هذه الجملة العظيمة، ففي مسنده أحمد بسنده صحيح عن أبي أيوب، أنَّ نُوْفَ، وَعَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرِو يَعْنِي ابْنَ الْعَاصِي، اجْتَمَعَا فَقَالَ نُوْفُ: لَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِمَا وُضِعَ فِي كِفَّةِ الْمِيزَانِ، وَوُضِعَتْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فِي الْكِفَّةِ الْأُخْرَى، لَرَجَحَتْ هِنَّ، وَلَوْ أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا فِيهِنَّ كُنَّ طَبَقَا مِنْ حَدِيدٍ، فَقَالَ رَجُلٌ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، حَرَقْتُهُنَّ حَتَّى تَنْتَهِي إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

ويلاحظ هنا أن الفعل بصيغة المتكلم المفرد بخلاف الأفعال المتقدمة فهي بصيغة الجمع، وقد أبدى شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- في ذلك حكمة لطيفة نقلها عنه تلميذه ابن القيم في «تهدیب السنن» فقال:

"والآحاديث كلها متفقة على أن: «نستعينه» و «نستغفره» و «نعود به» بالنون والشهادتين بالإفراد: «أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمد عبده ورسوله». قال شيخ الإسلام ابن تيمية: لما كانت كلمة الشهادة لا يتحملها أحد عن أحد ولا تقبل البواية بحال أفرد الشهادة بها، ولما كانت الاستعانة والاستغاثة والاستغفار تقبل ذلك فيستغفر الرجل لغيره ويستعين الله له ويستعيذ بالله له أتى فيها بلفظ الجمع.

وفيه معنى آخر: وهو أن الاستعانة والاستغاثة والاستغفار طلب وإنشاء فيستحب للطالب أن يطلب لنفسه ولإخوانه المؤمنين وأما الشهادة فهي إخبار عن شهادته لله



بالوحданية ولنبيه بالرسالة وهي خبر يطابق عقد القلب وتصديقه وهذا إنما يخبر به الإنسان عن نفسه لعلمه بحاله بخلاف إخباره عن غيره فإنه يخبر عن قوله ونطقوه لا عن عقد قلبه. والله أعلم".

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران:102]

{اتقوا الله} كما يحق له أن يتقي، وهي هكذا بدون تحديد مما يدع القلب مجتهدا في بلوغها كما يتصورها وكما يطيقها.

وكلما أوغل القلب في هذا الطريق تكشفت له آفاق، وجدت له أشواق، وكلما اقترب بتقواه من الله، تيقظ شوقه إلى مقام أرفع مما بلغ، وإلى مرتبة وراء ما ارتقى، وتطلع إلى المقام الذي يستيقظ فيه قلبه فلا ينام.

قال ابن كثير: "عن عبد الله ابن مسعود: {اتقوا الله حق تقاته} قال: "أن يطاع فلا يعصى، وأن يذكر فلا ينسى، وأن يشكر فلا يكفر"، وهذا إسناد صحيح موقوف، وعن ابن عباس قال: {تقاته} أن يجاهدوا في سبيله حق جهاده، ولا تأخذهم في الله لومة لائم، ويقوموا بالقسط ولو على أنفسهم وآبائهم وأبنائهم".

﴿وَلَا تَمُوتُنَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

الموت غيب لا يدرى إنسان متى يدركه، فمن أراد إلا يموت إلا مسلما فسبيله أن يكون منذ اللحظة مسلما، وأن يكون في كل لحظة مسلما.

وذكر الإسلام بعد التقوى يشير بمعناه الواسع: الاستسلام.. الاستسلام لله، طاعة له، واتباعاً منهجه، واحتكماماً إلى كتابه.

هذه هي الركيزة الأولى التي تقوم عليها الجماعة المسلمة لتحقق وجودها وتؤدي دورها.

إذ أنه بدون هذه الركيزة يكون كل تجمع تجتمع جاهليا، ولا يكون هناك منهج لله تتجمع عليه أمة، إنما تكون هناك مناهج جاهلية، ولا تكون هناك قيادة راشدة في الأرض للبشرية، إنما تكون القيادة للجاهلية.



قال ابن كثير: "أي حافظوا على الإسلام في حال صحتكم وسلامتكم لتموتوا عليه، فإن الكريم قد أجرى عادته بكرمه أنه من عاش على شيء مات عليه، ومن مات على شيء بعث عليه، فعيادةً بالله من خلاف ذلك".

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ﴾

يقول تعالى آمراً خلقه بتقواه، وهي عبادته وحده لا شريك له، ومنها هم على قدرته التي خلقهم بها من نفس واحدة، وهي آدم عليه السلام وخلق منها زوجها وهي حواء عليها السلام خلقت من ضلعه الأيسر، من خلفه وهو نائم، فاستيقظ فرأها فأعجبته، فأنس إليها وأنست إليه.

وقيل: ذكر تعالى أن أصل الخلق من أب واحد وأم واحدة ليعطف بعضهم على بعض، ويخننهم على ضعفائهم.

﴿ وَبَثَ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ﴾

أي نشر وذرأ منهما -أي من آدم وحواء- رجالاً كثيراً ونساء كثيرة، ونشرهم في أقطار العالم على اختلاف أصنافهم وصفاتهم وألوانهم ولغاتهم، ثم إليه بعد ذلك المعاوض والمحشر.

﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾

[النساء: 1]

أي: تتسائلون به فيما بينكم حيث يقول بعضكم لبعض: "أسألك بالله وأنشدك بالله" {والأرحام} أن تقطعوها، وفي قراءة بالجر عطفا على الضمير في به وكانتوا يتناشدون بالرحم {إن الله كان عليكم رقيبا} حافظا لأعمالكم فيجازيكم بها، أي لم يزل متتصفا بذلك.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحُ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾

[الأحزاب: 70-71]



قال ابن كثير: "يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه، وأن يعبدوه عبادة من كأنه يراه، وأن يقولوا قولًا سديداً، أي مستقيماً لا اعوجاج فيه ولا انحراف، ووعدهم أئمهم إذا فعلوا ذلك أثابهم عليه بأن يصلح لهم أعمالهم، أي يوفقهم للأعمال الصالحة، وأن يغفر لهم الذنوب الماضية، وما قد يقع منهم في المستقبل يلهمهم التوبة منها، ثم قال تعالى: {ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزاً عظيماً} وذلك أنه يجأر من نار الجحيم، ويصير إلى النعيم المقيم".

والطاعة بذاتها فوز عظيم، فهي استقامة على نهج الله، والاستقامة على نهج الله مريحة مطمئنة، والاهتداء إلى الطريق المستقيم الواضح الواصل سعادة بذاته، ولو لم يكن وراءه جزاء سواه.

قوله: (فإن خير الحديث كتاب الله) وفي رواية: (إن أصدق الحديث كتاب الله)

هذه جواب الشرط، (خير) هنا اسم تفضيل حذفت منه الهمزة تحفيفاً لكثره الاستعمال؛ يعني: أخير الحديث كتاب الله، وهو القرآن.

فهو خير الأحاديث في الأخبار وفي الأحكام، لأنه مشتمل على غاية الصدق في الأخبار وعلى غاية العدل في الأحكام.

وخير الحديث أيضاً فصاحة وبلاغة وأسلوبًا، فلا يوجد له نظير، والبلاغة والفصحاء من قريش اعترفوا فيما بينهم سرّاً بأنه ليس من كلام البشر، حتى إن بعضهم ما ملك نفسه أن يسلم حين سمع القرآن.

كما أنه خير الحديث في إصلاح القلوب، فلا حديث أشد إصلاحاً للقلوب من كلام الله عز وجل.

وهو أيضاً خير الحديث في إصلاح المعاش معالش الخلق، لذلك لما كانت الأمة قائمة به كانت أسعد الأمم.

وهو خير الحديث أيضاً في إصلاح المعاد، يقول تعالى: {قَالَ اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعاً بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَىيَ فَلَا يَضُلُّ وَلَا يَشْقَى}



[طه:123] لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة، {وَمَنْ أَغْرَضَ عَنِ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى} [طه:124]

وهو أيضاً خير الحديث في قوة تأثيره، ولهذا قال الله -عز وجل-: {فَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدُهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيرَاً} [الفرقان:52].

فهو خير الكلام من كل ناحية: في لفظه ومعناه وتأثيره وعاقبته، وإصلاحه للخلق في الأعمال والقلوب والأحوال، فخير الحديث كتاب الله المكتوب.

قوله: (وَخَيْرُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ)

وفي رواية: (وَأَحْسَنُ الْهُدَى هُدَى مُحَمَّدٍ)

الهدي: الطريق والسنّة والعمل، فيشمل الأخلاق والعبادة والمعاملة، فخير الهدي هدي الرسول - عليه الصلاة والسلام - حتى من هدي الأنبياء السابقين، ولهذا قال الله تعالى: {قُلْ فَاتُوا بِكِتَابِ مَنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَى مِنْهُمَا أَتَتْعَهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [القصص:49]

فهديه، أي: إرشاده وطريقته، فقد كمل الله تعالى رسوله محمدًا -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بصفات الكمال البشري، ومن ذلك كماله في هدایته.

وقد زakah الله بهذا فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى:52]، وقال: ﴿إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِين﴾ [النمل: 79]

إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِين، فإذا أردنا أحسن الدلالة، وأفضل الطريقة للهداية فعلينا الاقتداء بنبينا محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قوله: (وَشَرُّ الْأُمُورِ مَحَدُثَاتٌ)

(شر الأمور) الأمور المتعلقة بالدين والعبادة شرعاً محدثاتها، أما ما يتعلق بالدنيا فإن من المحدثات ما هو خير وخير ما قبله أيضاً، لكن المقصود هنا: ما يتعلق بأمور الدين. يعني: التي أحدثت في دين الله هي شر الأمور.

لو قال لي قائل: أنا أريد الخير، أنا إذا فعلت هذا أجد في قلبي رقة ولينا وخشوعاً، لماذا تمنعني؟ ماذا نقول؟



نقول: هذا ليس بخير؛ لأن الرسول - عليه الصلاة والسلام - يقول: (شر الأمور)، و"شر" اسم تفضيل يعني: أشر الأمور ما أحدث في دين الله حتى لو تراءى لفاعله أنه خير فهذا من تزيين الشيطان له، وإنما فليس بخير مهما كان، لو قالوا: والله نحن اجتمعنا وخشينا وبيكينا وذكرنا الله عز وجل، وذكرنا الرسول - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وما أشبه ذلك، نقول: هذا شر لا شك نحن نؤمن بهذا هذا القبس الذي تجدونه ينقدح عند هذا الذكر هو ينطفئ ويعقبه ظلمة وحرارة؛ لأنه يفسد القلب.

البدع مهما كانت فإنها تفسد القلوب؛ لأنها - بإذن الله - يحدث بها رد فعل بالنسبة للسنن، وهذا قال بعض السلف: "ما أحدث قوم بدعة إلا وتركوا من السنة ما هو خير منها"، وهذا صحيح، فالقلب إذا اشتغل بالباطل ما بقي للحق فيه محل، كما أنه إذا انشغل بالحق ما بقي فيه للباطل محل".

قوله: (وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار)
بدعة في الدين، والبدعة ما تعبد به الله - عز وجل - عقيدة أو قولًا أو عملاً أو فعلًا، ولم يكن على عهد النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -؛ لأنه إذا كان على عهده فليست ببدعة.

وقوله: (ضلالة) الضلال ضد الهدى، فهي ميل وخروج عن الصراط المستقيم وضلال" [فتح ذي الجلال والإكرام بشرح بلوغ المرام]
(وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار)..
هذه الجمل الأربع تحذير من سلوك طريق البدع؛ فقد بين رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن شر الأمور المحدثات في الدين؛ وذلك لأنها اتهام غير مباشر لرسول الله بأنه لم يبلغ جميع الدين، ولأنها تصير الدين من حق إلهي إلى حق مشترك بينه وبين خلقه، فيصبح الدين ألعوبة بين عقول البشر كل يزيد فيه على حسب هواه عبر الأجيال.
وقد بين النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أن كل المحدثات في الدين من مسمى البدع، وأن البدع تسوق إلى الضلال؛ لأنها تعلّم على حق الشارع الذي هو الحق، وما بعد الحق إلا الضلال.



ثم إن البدعة تؤدي ب أصحابها إلى النار إذا لم يتب منها؛ لأنها عمل مخالف لشرع الله، وكل عمل مخالف لشرع الله فمصيره النار.

** اختلف العلماء في «خطبة الحاجة» ومشروعيتها في بداية التأليف والتصنيف أو المراسلات بين الناس، وذلك على قولين:

القول الأول: "خطبة الحاجة" ليست سنة في ابتداء الكتابة والتأليف.

يقول ابن علان -رحمه الله-: الخطبة المعروفة من خطبة الجمعة والأعياد ونحوهما، وخطبة الحاجة ونحوها؛ لأنها المعهودة في عهد الشارع، دون خطب نحو الكتب، وقد ترك الإتيان بها - أي بالشهادة - الترمذى في جامعه وشمايله، وكذا أبو داود، وهم راويا الحديث، فدل صنيعهما على تخصيصه بما ذكر" [الفتوحات الربانية]

ويقول الملا علي القاري -رحمه الله-: لما ترك أكثر المصنفين العمل بظاهر هذا الحديث (كل خطبة ليس فيها تشهد فهي كاليد الجذماء) دل على أن ظاهره غير مراد، فيؤول بأحد التأويلات، والأظهر عندي أن تحمل الخطبة في هذا الحديث على الخطب المتعارفة في زمانه -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أيام الجمع والأعياد وغيرها، فإن التصنيف حدث بعد ذلك". [جمع الوسائل شرح الشمائل]

واستدلوا بالأدلة الآتية:

الدليل الأول: كتب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى الملوك والأمراء ليس فيها البداءة بهذه الخطبة، كما أنه عليه الصلاة والسلام في كثير من كتبه التي أمر بكتابتها للمسلمين في بيان الصدقات والديات وغيرها لم يأمر ببداءتها بخطبة الحاجة، وليس فيها الحمد والتشهد، وإنما فقط البسمة.

يقول ابن حجر -رحمه الله-: "جمعت كتب النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إلى الملوك وغيرهم، فلم يقع في واحد منها البداءة بالحمد، بل بالبسمة". [فتح الباري]

الدليل الثاني: أن أحداً من أهل العلم المصنفين في الحديث كالبخاري ومسلم وأحمد بن حنبل أو الفقه كالشافعى، أو التفسير أو علوم القرآن أو النحو، كلهم لم نجد أحداً منهم يبتداء كتابه بخطبة الحاجة، كما لم نقف على من يذكر خطبة الحاجة في كتب



الآداب، أو يقرر استحبابها في التأليف والمراسلات، وإنما يذكروها في كتاب «النکاح» فحسب، فإذا كان ذلك سنة فكيف تغيب عن علماء الإسلام الذين هم مادته وقوامه!! يقول ابن حجر -رحمه الله-: «تصانيف الأئمة من شيوخ البخاري، وشيوخ شيوخه، وأهل عصره، كمالك في الموطأ، وعبد الرزاق في المصنف، وأحمد في المسند، وأبي داود في السنن، إلى ما لا يحصى ممن لم يقدم في ابتداء تصنيفه خطبة، ولم يزد على التسمية، وهم الأكثر، والقليل منهم من افتتح كتابه بخطبة أو يحمل على أنهم رأوا ذلك مختصاً بالخطب دون الكتب، كما تقدم، وهذا من افتتح كتابه منهم بخطبة حمد وتشهد كما صنع مسلم ... وقد استقر عمل الأئمة المصنفين على افتتاح كتب العلم بالبسملة، وكذا معظم كتب الرسائل». [فتح الباري]

القول الثاني: «خطبة الحاجة» سنة مستحبة في أوائل المصنفات والمراسلات، وهو قول الإمام أبي جعفر الطحاوي -رحمه الله- الصريح في مقدمة كتابه «مشكل الآثار»، كما هو ظاهر ما يذهب إليه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، فقد افتتح الكثير من رسائله بإحدى صيغ خطبة الحاجة الثابتة، وهي من الكثرة بحيث يشق حصرها، تجدها في «مجموع الفتاوى»، و «جامع الرسائل»، وكذلك كتبه «درء التعارض»، و «بيان تلبيس الجهمية»، و «الأخنائية»، وكذلك العالمة ابن قيم الجوزية رحمه الله، افتتح كتابه «الطرق الحكمية»، و «الصلة وأحكام تاركها» بهذه الخطبة.

يقول الطحاوي -رحمه الله-: ابتدأته - يعني كتابه - بما أمر - صلى الله عليه وسلم - بابتداء الحاجة به، مما قد روي عنه بأسانيد أنا ذاكرها بعد ذلك إن شاء الله، وهو: إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، وننحو بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبد الله ورسوله - ذكر الآيات الكريمات"

[شرح مشكل الآثار]

ويقول ابن تيمية -رحمه الله-: «هذا استحب - يعني خطبة الحاجة - وفعلت في مخاطبة الناس بالعلم عموماً وخصوصاً، من تعلم الكتاب والسنة والفقه في ذلك، وموعظة الناس ومجادلتهم، أن يفتح بهذه الخطبة الشرعية النبوية.



وكان الذي عليه شيخ زماننا الذين أدركناهم وأخذنا عنهم وغيرهم يفتتحون مجلس التفسير أو الفقه في الجامع والمدارس وغيرها بخطبة أخرى. مثل: الحمد لله رب العالمين، وصلى الله على محمد خاتم المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، ورضي الله عنا وعنكم وعن مشايخنا وعن جميع المسلمين، أو وعن السادة الحاضرين وجميع المسلمين.

كما رأيت قوما يخطبون للنكاح بغير الخطبة المشروعة، وكل قوم لهم نوع غير نوع الآخرين، فإن حديث ابن مسعود لم يخص النكاح، وإنما هي خطبة لكل حاجة في مخاطبة العباد بعضهم بعضا، والنكاح من جملة ذلك، فإن مراعاة السنن الشرعية في الأقوال والأعمال في جميع العبادات والعادات هو كمال الصراط المستقيم، وما سوى ذلك إن لم يكن منهيا عنه فإنه منقوص مرجوح، إذ خير الهدي هدي محمد -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ". [مجموع الفتاوى]

ويقول ابن علان -رحمه الله-: وقيل: بل الخطبة على عمومها، ولعل أبا داود والترمذى أتيا بها لفظا، وأسقطها خطأ، وذلك كاف". [الفتوحات الربانية]

ويقول الشيخ الألبانى -رحمه الله-: "هذه الخطبة تفتح بها جميع الخطب، سواء كانت خطبة نكاح، أو خطبة جمعة، أو غيرها، فليست خاصة بالنكاح - كما قد يظن - وفي بعض طرق حديث ابن سعود التصريح بذلك كما تقدم" [خطبة الحاجة للألبانى] واستدلوا على ذلك بالأدلة الآتية:

الدليل الأول: الأحاديث الكثيرة الواردة في افتتاح النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بعض خطبه ومواعظه وكلامه بخطبة الحاجة. ولم يخصها بالنكاح، فقد تكلم بها النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بين يدي ضمام بن ثعلبة، ولم يكن في ذلك نكاح ولا جمعة ولا عيد.

ومن ذلك أيضا حديث ابن مسعود -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "عَلِمَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التَّشَهِيدَ فِي الصَّلَاةِ، وَالْتَّشَهِيدَ فِي الْحَاجَةِ" [الترمذى] فقالوا: إن كلمة (الحاجة) تشمل كل حاجة، سواء كانت درسا وموعدة وخطبة، أم مصنفا وتأليفا ورسالة، أم غيرها.



يقول السندي -رحمه الله-: "الظاهر عموم الحاجة للنِكاح وغيره، فينبغي للإنسان أن يأتي بهذا ليستعين به على قضائهما وتمامها". [حاشيته على سنن النسائي]

الدليل الثاني: العموم الوارد في بعض الروايات، منها ما ورد في «سنن أبي داود» عن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قوله: "عَلِمْنَا رَسُولُ اللَّهِ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- خُطْبَةَ الْحَاجَةِ فِي النِّكَاحِ وَغَيْرِهِ".

الدليل الثالث: افتتاح بعض العلماء كتبهم بهذه الخطبة، كما سبق عن كل من الإمام الطحاوي، وابن تيمية، وابن القيم.

وبالتأمل في أدلة الفريقين يمكننا أن نتبين رجحان القول الأول لقوة أداته.

أما الجواب على أدلة القول الثاني:

فدليلهم الأول ليس فيه نص في محل الخلاف الذي هو ابتداء الكتب والمصنفات، فجميع الروايات الواردة في خطبة الحاجة إنما هي في الخطب القولية واللفظية، أما السنة العملية للنبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في كتابة الكتب والرسائل إلى الملوك والأمراء وغيرهم فليس في شيء منها خطبة الحاجة، وفعل النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- مبين للمجمل، وموضح للمبهم.

أما الدليل الثاني فلا يسلم لهم أيضاً، فقد وردت زيادة (في النِكاح وغیره) من طريق أبي إسحاق، عن أبي عبيدة، عن عبد الله بن مسعود. وهذا إسناد منقطع، فأبو عبيدة لم يسمع من أبيه الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه-، وهذا ما عقب به النسائي على الحديث بعد أن أخرجه في «السنن» قال: "أبو عبيدة لم يسمع من أبيه شيئاً".

قال الشيخ الألباني -رحمه الله-: "هذه الزيادة (في النِكاح وغیره) هي لأبي داود من طريق سفيان عن أبي إسحاق، وظاهرها أنها من قول ابن مسعود، لكن خالف شعبه، فجعلها من قول أبي إسحاق، حيث قال: قلت لأبي إسحاق: هذه في خطبة النِكاح أو في غيرها؟ قال: في كل حاجة. رواه الطيالسي [خطبة الحاجة للألباني] وعلى فرض صحة الزيادة فالمقصود بها غير النِكاح من الكلام والمواعظ، وليس الكتابة والتأليف.



وأما الدليل الثالث فهو محل الخلاف، فلا يستدل بموضع التزاع، كما لا ينبغي أن يستدل برأي بعض العلماء على الآخرين، وإنما العبرة بالسنة النبوية المرفوعة إلى النبي - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - من قوله أو فعله.

وحين نقول بعدم السنوية فذلك لا يعني عدم الجواز، فلا مانع أن يستفتح الكتاب بخطبة الحاجة أحياناً، ولكن ذلك لا يعني الاستحباب والندب.

هذا فضلاً عن أن كل من بدؤوا بعض كتبهم بخطبة الحاجة: كان هديهم الأكثر على خلاف ذلك، فالطحاوي لم يفتح سوى كتاب واحد بهذه الخطبة، أما بقية كتبه فلم يفعل. وكذلك الشأن لدى كل من ابن تيمية وابن القيم رحمهم الله جميماً.

وجواب الشيخ الألباني -رحمه الله- عن ذلك بقوله: "هي ليست فرضاً حتى لا تترك، بل قد يكون العكس هو الأصوب، وهو تركها أحياناً، حتى لا يتورم أحد فرضيتها".

مثل هذا الجواب يصلح لو كانت ثبتت الحجية بأدلة صريحة من قول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- بالحث على بدأءة الكتب بها أو فعله، ولكن لما لم يثبت ذلك فترك العلماء لها يؤيد عدم سنتها.

يقول الشيخ بكر أبو زيد -رحمه الله-: "وهو لاء المؤلفون من علماء الإسلام، لا تراهم كذلك، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى-، فإنه في كتبه وفتاويه يفتح بها تارة، وبغيرها تارة أخرى.

ولهذا فإن ما تشاهدناه في عصرنا من التزام بعض الكتاب بافتتاح رسائلهم بها، وخطبهم بها، كل هذا التزام لا أعرفه في الحياة العملية في هدي النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- ولا صحابته رضي الله عنهم، ولا من بعدهم من التابعين لهم بإحسان، ومن أدعى فعليه الدليل.

بهذا التقرير تعلم فقه أصحاب السنن رحمهم الله تعالى في ترجمة خطبة الحاجة في "كتاب النكاح" وتقرير العلماء بمشروعيتها بين يدي عقد الزواج" [تصحيح الدعاء]



الخلاصة :

أن الهدى العام في المؤلفات هو البداية بالبسملة، أو الحمدلة العامة بأي صيغة ترد، أما خطبة الحاجة المشتملة على ألفاظ معينة وآيات محددة: فليست سنة في المؤلفات والمصنفات.

بل قد قال كثير من العلماء إنما تستحب في خطبة النكاح فقط، لأنك عند البحث والتفتيش تتبين أن عشرات المحدثين والفقهاء في كتب الفقه والحديث إنما أوردوا خطبة الحاجة في معرض أبواب النكاح وآدابه وأحكامه، ولو رحنا نسوق ذلك لطال المقام بنا جدا.

** قال فريق من أهل العلم أنها سنة في عقد النكاح، والصحيح أنها سنة في الجمعة كذلك، وأجاز بعض العلماء النكاح بغير خطبة، كما نقل ذلك الإمام الترمذى في جامعه، واستدلوا لذلك بحديث: عَنْ رَجُلٍ، مِنْ بَنِي سُلَيْمٍ، قَالَ: «خَطَبْتُ إِلَى النَّبِيِّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أُمَّامَةً بِنْتَ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ فَأَنْكَحْنِي مِنْ غَيْرِ أَنْ يَتَشَهَّدَ» [أبو داود وضعفه الألباني ورواه البخاري في التاريخ الكبير، وقال إسناده مجهول]، وقال الحافظ ابن حجر في الفتح: وفيه (يعني حديث سهل بن سعد) أنه لا يشترط في صحة العقد تقدم الخطبة إذ لم يقع في شيء من طرق هذا الحديث وقوع حمد ولا تشهد ولا غيرهما من أركان الخطبة، وخالف في ذلك الظاهريه فجعلوها واجبة ١.٦.

والوارد في السنة تقديم الخطبة أعني خطبة الحاجة بين يدي الخطبة، وهي حاجة من الحاجات التي تشرع عندها، وأما عقد النكاح فهو شيء من ذلك.

** جاءت خطبة الحاجة في السنة على ألفاظ متنوعة مشتركة ومختلفة في بعضها، لكن يجمعها البدء بالحمد والشهادة.

** من الأمور الخطأ الملحوظة: أن يكثر في السامعين الانشغال الذهني عن خطبة الحاجة حتى يدخل المتكلم في موضوع كلامه، وينتجوازها بعض القراء في الكتب التي يقرأها إلى شروع الكاتب في صلب حديثه.



المحتويات

2.....	المقدمة:
5.....	قوله (إن الحمد لله، نحمده)
7.....	قوله: (ونستعينه)
7.....	قوله: (ونستغفره)
9.....	قوله: (ونعوذ بالله من شرور أنفسنا)
10.....	قوله: (ومن سيرات أعمالنا)
11.....	قوله: (من يهده الله فلا مضل له، ومن يضل فلا هادي له)
14.....	قوله (واشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له،
14.....	واشهد أن محمداً عبده ورسوله)
17.....	قوله: (فإن خير الحديث كتاب الله)
18.....	قوله: (وخير الهدي هدي محمد)
18.....	قوله: (وشر الأمور محدثاتها)
19.....	قوله: (وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلاله، وكل ضلاله في النار)
25.....	الخلاصة:

جمع وترتيب

د/ خالد سعد النجار

alnagar66@hotmail.com

